

روسيا وحرب القرم ١٨٥٣-١٨٥٦

أ.د. حسن محمد علي الطائي

كلية التربية للعلوم الانسانية - جامعة بابل

المقدمة

تعد حرب القرم من أهم الحروب التي خاضتها الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر، وقد اشتركت فيها بريطانيا وفرنسا إلى جانب الدولة العثمانية، وهي إنما سميت بهذا الاسم لحدوث أهم معاركها في شبه جزيرة القرم التي تقع شمال البحر الأسود.

كان السبب المباشر للحرب هو ما وقع من خصام عنيف في مدينة القدس بين رهبان الكاثوليك والاثنوكس، فانتهر قيصر روسيا الفرصة قدم إنذار إلى الحكومة العثمانية يطلب منها أن تعترف به اعترافاً رسمياً بأنه حامي جميع الرعايا الارثوذكس في البلاد العثمانية، وأسرع السفير البريطاني كاننغ يرض المسؤولين العثمانيين على رفض الإنذار ومن هنا أخذت الأزمة تشد شيئاً فشيئاً. نشبت الحرب في شهر تموز من عام ١٨٥٣م، ثم اشتركت فيها بريطانيا وفرنسا في آذار من عام ١٨٥٤م. وكان لها ثلاث جبهات: جبهة الدانوب في الغرب وجبهة قفقاسيا في الشرق، وإما الجبهة الثالثة فكانت في شبه جزيرة القرم. قسم البحث إلى مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة، فضلاً عن قائمة بأسماء المصادر، قسم المبحث الأول إلى ثلاثة نقاط، تناولت النقطة الأولى الثورة اليونانية وما أفرزته من صراعات بين روسيا والدولة العثمانية، في حين ركزت النقطة الثانية على المسألة المصرية ودور محمد علي باشا في إنكفاء الصراع العثماني - المصري، أما بالنسبة إلى النقطة الثالثة فقد كانت تخص معاهدة لندن عام ١٨٤٠ حيث كانت أحد الأسباب المباشرة لحرب القرم، أما المبحث الثاني فقد سلط الضوء على الظروف والأسباب التي أدت إلى قيام الحرب بين الدول المتحاربة، أما المبحث الثالث فقد تناول نتائج حرب القرم ومقررات مؤتمر باريس الذي انتهت به الحرب.

المبحث الأول

نبذة تاريخية عن الأوضاع الدولية قبل اندلاع حرب القرم

أولاً- الحرب في اليونان ١٨٣١-١٨٤٠

بدأت الثورة في اليونان، في مطلع نيسان ١٨٢١ في سبع جزيرة المورة وفي غضون أشهر قليلة سيطر المسلحون اليونانيون على كل منطقة الريف من (تيسالي) الواقعة شرق وسط اليونان، إلى (المورة)، وحاصر المسلحون الجيش العثماني في الحصون والقرى. ووقعت عدة مذابح منها واقعة (نفارينو وتريبوليتاس) وأصبحت جزيرة هيدرا قاعدة لشن الهجمات ضد السفن العثمانية، إلا أن العثمانيين تمكنوا في النهاية من قمع الثورة اليونانية.^(١) ومن الجدير بالذكر إن الأسباب المباشرة التي أدت إلى قيام هذه الثورة هو تدهور الأوضاع الاقتصادية في اليونان بشكل عام، وظهرت أوضح مظاهر هذا التدهور في شبه جزيرة المورة بشكل خاص، نتيجة تظافر عدة عوامل في مقدمتها، سوء المحاصيل الزراعية لعام (١٨٢١)، وإن أغلب المساحات الزراعية كانت تعود ملكيتها للأقليات المسلمة، مما سبب استياء الأكثرية المسيحية، فضلاً عن ذلك الظلم السياسي وحالة الذل والإهانة الذين طبعوا الواقع المسيحي هناك في ظل السيطرة العثمانية.^(٢) تنامي الشعور القومي الجماعي لدى اليونانيين للتحرر من سلطة العثمانيين، مما أدى إلى إنكفاء الكره والعداء للعثمانيين الذين يعتبرهم اليونانيون أجنب غزاة لبلدهم، وما أشتهر عن العثمانيين من تقشي الفساد المالي والإداري المتمثل في كثرة الرشاوى وعدم وجود ضوابط إدارية تحفظ حق الشعب اليوناني في التمتع بالمواقع الإدارية والسياسية المهمة، كل ذلك قاد إلى وصف اليونانيين للدولة العثمانية بالضعف.

(١) عمر طومسون، الجيش المصري في الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم ١٨٥٣-١٨٥٥، ط١، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٩٣،

ص٦.

(٢) المصدر نفسه، ص٧.

حاول مترنيخ^(١) من أجل ديمومة وسلامة النظام الذي أوجده في أوربا الوقوف ضد هذه الثورة مؤيداً ومشجعاً السلطان العثماني محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩) على سحقها، فمترنيخ لم يجد أية مصلحة في كفاح اليونانيين. فكان ضد اليونانيين حيث يرى فيهم شعباً شبه متوحش، ثار ضد حاكمه الشرعي. وبذلك فتح مترنيخ الطريق إلى تدخل روسي^(٢) واسع في الدولة العثمانية، لذلك التدخل الذي سيهدد السلام في أوربا وسيقود بالذات إلى صراع خطير بين روسيا والنمسا. أدرك مترنيخ الصعوبات التي كانت تعترض سير العلاقات الروسية-العثمانية، ولكنها لم تسبب له قلقاً بقدر ما سببت له نشاطات القناصل والمندوبين الروس في الدولة العثمانية إذ اعتقد هؤلاء المندوبين قد تورطوا في مؤامرات الجمعية السرية اليونانية (هيتريا فيليكيا)، وفي الوقت نفسه أعطى تعليمات إلى السفير الروسي في اسطنبول البارون ستروغانوف، للتحرك لمساعدة العثمانيين في وضع حد للثورة قبل اكتساح العثمانيين للمقاطعتين^(٣) لكن انتشار الثورة إلى شبه جزيرة المورة وطريقة معالجتها من العثمانيين والتهديد بإرسال الجيش الإنكشاري إلى داخل المقاطعات الدانوبية^(٤). فقد قرر العثمانيون القضاء على الثورة. كانت هناك عوامل عديدة دفعت الدول الأوروبية إلى التدخل في قضية اليونان في مقدمتها:

- ١- التنافس الاستعماري التوسعي بين الدول الأوروبية.
 - ٢- العامل الديني، فقد اعتبرت الدول الأوروبية إن هؤلاء اليونانيين مسيحيين ومن أبناء دينهم.
 - ٣- استخدام الدولة العثمانية القسوة والشدة في قمع العناصر الثائرة.
 - ٤- ضغط الرأي العام في أوربا على حكومتها من أجل التدخل فغي الثورة ومناصرة الثوار.
 - ٥- اعتلاء القيصر الروسي نيقولا الأول عرش روسيا في عام ١٨٢٥ الذي نبذ سياسة سلفه الأسكندر الأول في التضامن مع الدول الأوروبية وإن اتبع سياسة التدخل والتحريك لصالح روسيا.
- لم تكن القضية اليونانية تهم الروس بقدر ما كانت تهم الأقاليم الدانوبية، ففي سنة ١٨٢٦ وجه القيصر الروسي إنذاراً إلى الدول العثمانية بتنفيذ بنود معاهدة بوخارست التي وقعت في عام ١٨١٢ والمتعلقة بولايات الدانوب، وبعد مفاوضات بين الطرفين (العثمانيين والروس) توصل الطرفان إلى اتفاق (أكرمان سنة ١٨٢٦) حيث وقع وافق العثمانيون على إعطاء امتيازات تجارية في البحر المتوسط والسماح لسفنهم التجارية في العبور بحرية وقد أثار هذه الاتفاق بريطانيا ونتج عن التدخل والمعارضة البريطانية أن توصل الروس والبريطانيين إلى اتفاق أصبح الروس فيه أحراراً في الدانوب، وتكفل البريطانيون بالقضية لم تهتم بالواسطة واحتجت فرنسا على عدم مشاركتها في المعاهدة مما أدى إلى توقيع معاهدة بريطانية روسية فرنسية عام ١٨٢٧ ونصت على:-

- (١) مترنيخ: هو كليمنز لوثر مترنيخ (١٧٧٣-١٨٥٩). دخل الخدمة في لبلات النمساوي ١٧٩٧. عين سفير بروسيا ١٨٠٣، وسفيراً في فرنسا ١٨٠٦. وعين لوزير الخارجية عام ١٨٠٩ ثم مستشاراً للسنوات ١٨٢١-١٨٤٨. عارض الخطط الروسية لإلحاق بولندة بروسيا في مؤتمر فيينا. أهم ما يميز سياسته استيائه من الأفكار القومية والليبرالية. اقترن اسمه بإعادة النظام القديم: لمزيد من التفاصيل ينظر زيدان حسان الحاي، مؤتمر فيينا ١٨١٤-١٨١٥، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية جامعة بغداد، ٢٠٠٤، ص ٣٩.
- (٢) وقفت الحكومة الروسية إلى جانب الثوار اليونانيين، وقدمت الدعم لهم فأعلنت في ١٦ نيسان ١٨٢٨ الحرب على الدولة العثمانية، واستطاعت قواتها في أيار من تلك السنة عبور بحر بروت واحتلت إمارة الدانوب ودخل أسطولها البحري إلى الدردنيل، ونجح الجيش الروسي في ٢٠ آب ١٨٢٩ من احتلال مدينة أدنه الغربية من العاصمة العثمانية اسطنبول، مما دفع السلطان العثماني محمود الثاني إلى عقد صلح مع الروس، فعقد بينهما صلح ادريانابول (أدرنة) في ١٤ أيلول ١٨٤٩، وحصلت روسيا بموجبها على جزء من ساحل البحر الأسود وجزء من باشوية آخالسيخ، كما استولت على جزء من دلتا دانوب، وأعطت التجار الروس حرية التجارة مع الدولة العثمانية وغيرها من البنود ينظر: هاشم صالح التكريتي، المسألة الشرقية، المرحلة الأولى (١٧٧٤-١٨٥٦) بغداد، ١٩٩٠، ص ١١٦-١٢٦.
- (٣) أمة الملك إسماعيل قاسم، الولادة العثمانيون وأبرز أعمالهم الإنشائية في فترتي الحكم الأول والثاني لليمن، مجلة جامعة الملك سعود، مجلد ٢٢، ١٤٣١هـ، ص ١٣٢.

(٤) قرر العثمانيون سحق ثورة التي اعتبروها تمرداً بطريقتهم الخاصة التي تعني قتل كل القادة الثوريين الذين يتم إلقاء القبض عليهم واحتلال المقاطعتين بقوات مسلحة حتى يتم سحق التمرد في شبه جزيرة المورة، وطالبوا روسيا بتسليمهم ميشال سيوزرا والهاربين الآخرين، للمزيد من التفاصيل انظر: عمر طومسون المصدر السابق، ص ٤٥.

١- بقاء سلطة العثمانيين على اليونان مقابل دفعهم إلى الدولة العثمانية الضريبة.

٢- يقوم اليونانيون بانتخاب حكومة لهم واسترجاع الأراضي اليونانية من العثمانيين.

إلا إن السلطان العثماني لم يقبل بهذه المعاهدة لأن القوات العثمانية قطعت شوطاً كبيراً في مقاتلة اليونانيين. وإنه كان يتصور أن العثمانيين قادرون على القيام بالضربة الأخيرة في اليونان وتجمعت (١٢٦) سفينة عثمانية بمساعدة الأسطول المصري^(١) وفي سنة ١٨٢٩ توصلت الأطراف المتنافسة إلى اتفاقاً ينص على إقامة دولة يونانية تحت السيادة اليونانية على أن تكون مستقلة استقلالاً ذاتياً وحكماً وراثياً، وقد وافق السلطان العثماني سنة ١٨٢٩ ورست المصالح الروسية في ولايتي البغدان والأفلاق (رومانيا) حالياً وأدت على استقلال صربيا الذاتي وحصل الروس على الدانوب وحرية التجارة في البحر الأسود والقوقاز وأرمينية، وهكذا حصلت اليونان على استقلالها الذاتي عن الدولة العثمانية سنة ١٨٣٢ وهذا شاهد من شواهد ضعف الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر.^(٢)

ثانياً- المسألة المصرية ١٨٣١-١٨٤٠

لقد أثارت إصلاحات محمد علي^(٣) مخاوف الدولة العثمانية، وأصبح السلطان يخاف من أن يتخطى محمد علي حدوده، ويصبح خطراً على الدولة، ولا سيما أنه يخاف أن يستقل عن الدولة ويضرب السلطنة في الصميم، ولكن محمد علي اتبع سياسة حكيمة في بادئ الأمر حتى لا يثير غضب السلطان، وتلخصت سياسته في أن يشارك في حروب السلطان ويصبح نصيره في معاركه مع أعداءه، وأظهر محمد علي الاحترام الكامل له والرغبة الصادقة في معاونته كما تجنب كل ما يدل على إهمال الواجب نحوه^(٤) واستجاب لطلب محمود الثاني لنجده في حرب الموره^(٥)، وهذا فضلاً عن كون محمد علي لم يغضب لتحطم أسطوله في نفايرين ولم يظهر أي استياء. كما أنه ساند السلطان في حربه مع روسيا عام ١٨٢٨ وطالبه السلطان بإرسال جيش ولكنه تصرف بكياسة فلم يرسل جيشاً بسبب خوفه من الدخول مع روسيا في مشاكل^(٦)، ولكنه أرسل الأموال لاسترضاء السلطان، لذلك كانت العلاقات بينهم طيبة. إن خسارة أسطول محمد علي في واقعة نفايرين وسحق قوته في ٢٠/تشرين الأول ١٨٢٧م. كانت السبب الحقيقي في أن يسحب محمد علي قواته مع المنطقة، وبدأ يطالب السلطان بعد توقيع معاهدة أدنة في أيلول/سبتمبر ١٨٢٩م^(٧) والتي وقعت بين الدولة العثمانية وروسيا والتي اعترف فيها السلطان العثماني باستقلال اليونان أن يعطي لمحمد علي حكم بلاد الشام ثمناً وتعويضاً لما خسره في هذه الحرب التي أدخله فيها.

فكانت هذه بداية القطيعة بين محمد علي عن حكم الدولة العثمانية، ويمكن اعتبارها بداية الحركة التي أخرجت محمد علي عن حكم الدولة العثمانية عام ١٨٣١م أثر رفض السلطان إعطائه سوريا مقابل الأموال الكثيرة التي فقدها والأسطول الضخم الذي تحطم في المعركة فأراد أن يحصل على حقوقه بنفسه، فبدأت الأزمات تتصاعد بين الطرفين. لقد شعر محمد علي بضعف السلطان بعد حربه مع روسيا والثورة في اليونان، لقد كان لمحمد علي أسباب تمرده على السلطان وهي أن محمد علي شخص عملي وفعال ونشط، شخص يعرف كيف يعمل وكيف يتصرف، وكان يرغب في السيطرة على سوريا وذلك لكي يبقى أولاده في مصر ويبقيها دولة قوية تستطيع أن تواجه التهديدات

(١) محمد مظفر الأدهمي، تاريخ أوروبا القرن التاسع عشر، بغداد، مطبعة جامعة بغداد، ١٩٨٦م ص ٢٦٥.

(٢) نور الدين حاطوم، تاريخ الحركات القومية، دمشق، ١٩٦٧، ص ٣٧١-٣٧٣.

(٣) محمد علي باشا: جاء محمد علي باشا إلى مصر مع القوات الألبانية التي أرسلها السلطان العثماني إلى مصر في عام ١٨٠١ وتولى ولايتها عام ١٨٠٥ وبقي في سدة الحكم إلى عام ١٨٤٨، وكان له الفضل في تطوير مصر بجميع جوانبها الإدارية والعسكرية والاقتصادية، لمزيد من التفاصيل عن التطورات التي أحدثها محمد علي باشا في مصر، إبراهيم خليل أحمد، تاريخ السيطرة العثمانية على أقطار الوطن العربي، الموصل، مطبعة جامعة الموصل، ١٩٨٢، ص ١٤١.

(٤) محمد كمال، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، القاهرة، دار الثقافة للطباعة ١٩٧٦، ص ١٦٣-١٦٤.

(٥) الموره: وهي ثورة حدثت في اليونان عام ١٨٢١م وأوقع الثوار بالعثمانيين مذبحه كبيرة امتدت الثورة إلى مقدونيا واستولوا على مقر الحكومة العثمانية، فاستعان السلطان بمحمد علي لإخضاع اليونانيين، رجب حراز، الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ١٨٤٠-١٩٠٩، القاهرة، ١٩٧٠، ص ١٨.

(٦) محمد كمال دسوقي، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٧٦، ص ١٦٤.

(٧) عمر الأسكندري وسليم حسن، تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر، مطبعة المعارف، ١٩١٧، ص ١٧٠.

بقوة، وكان يود أن يؤكد في أن حدود مصر الطبيعية ليس السويس، بل في جبال طوروس، كما أنه لم يكن يرغب في أن تكون مصر التي بناها خاضعة للعثمانيين بل دولة قوية مستقلة، فحاول أن ينفرد بتحصيل حقوقه فبدأت حملته على بلاد الشام في ٢٩ تشرين الأول عام ١٨٣١م وقد كان الجيش العثماني في حالة ضعف تام عكس الجيش المصري الذي كان منتظماً ومسلحاً، ولم يتحرك الجانب العثماني إلا بعد ستة أشهر من بدء الحركات المصرية في منطقة بلاد الشام، الذي سيطر على غزة وبافا، وحيفا بدون مقاومة تذكر^(١)، وفي تشرين الثاني من العام نفسه حاصر عكا ودخلها بعد ستة أشهر، ومن ثم استولت القوات المصرية على حمص وحماة وحلب واتجه نحو مضيق بيلان الجبلي ثم تمكنت القوات المصرية من دخول الأناضول واستولت على أظنه بعد معركة قونية في ٢١ تشرين الثاني عام ١٨٣٢^(٢). أحست الدولة العثمانية بالخطر وبدأت تطلب المعونة من الدول الكبرى، ولكن فرنسا كانت تؤيد وبشكل كامل محمد علي، وانكترًا كانت في موقف حرج لا تستطيع أن تقدم المساعدة، إلا أن روسيا استغلت الوضع وخاصة أن السلطان طلب منها المساعدة. وفي ٢ شباط ١٨٣٣ احتل المصريون كوتاهية فطلب محمود الثاني رسمياً من روسيا التدخل والمساعدة وفي ٢٠ شباط ١٨٣٣ دخل الأسطول الروسي مياه البسفور^(٣). وانزل الفيلق الروسي الذي قوامه ٣٠ ألف محارب فأفزع التدخل الروسي كل من انكترًا وفرنسا فحاولتا مصالحة محمد علي مع السلطان لكي لا يقطع الطريق أمام روسيا وتدخلها السافر في المنطقة على حساب مصالح كلتا الدولتين وفعلاً استطاعتا أن تجعل محمد علي والسلطان يوقعان صلح كوتاهية في ٤ أيار ١٨٣٣^(٤)، والذي بموجبه أعطي محمد علي حكم مصر والجزيرة والودان وكريت وعين حكماً على بلاد الشام^(٥). إن قوة محمد علي وسيطرته المباشرة على بعض ممتلكات الدولة العثمانية، فضلاً عن خوف السلطان من امتداد هذا النفوذ ليشمل أجزاء أخرى أدى إلى أن يلجأ إلى روسيا ولقد كرس السلطان جهده وسخر موارد بلاده وتحالف مع خصومه من أجل تحطيم السياسة المصرية. فعقد اتفاقية خنكار سكله سي في ٨ تموز ١٨٣٣ مع روسيا التي كانت لها أهداف في إبرام هذه المعاهدة وهي أن تجعل من نفسها المحامي الوحيد للإمبراطورية المتداعية، وإن تعزز موقعها في المنطقة وتحصل على مواقع جديدة في مياه البسفور والدرينيل^(٦)، فتعهدت روسيا بإرسال قوات لمساعدة السلطان إذا ما اقتضت الحاجة لذلك وعلى السلطان أن يقفل الدردنيل بوجه السفن الحربية الأجنبية إذا ما طلبت روسيا منه ذلك، وأدكت هذه المعاهدة على سيطرت روسيا على الدولة العثمانية، وأصبحت الحامية الوحيدة للدولة العثمانية في تلك الفترة وحتى عام ١٨٣٩^(٧). وكانت الدولة العثمانية حتى ذلك الوقت بمثابة حليف لأوروبا الغربية في الحفاظ على توازن القارة تجاه روسيا، فإن دعمت انكترًا إحدى هاتين الدولتين قوت في أي حال من النفوذ الروسي في استانبول، وهذا مما جعل قوة الباشا مهددة فظيعة للقوة وإن الدولة العثمانية هي التي شكلت حاجزاً كبيراً بين أوروبا وجنوب آسيا. إن الضغوط والمواقف المتشددة من ميل بريطانيا وغيرها من الدول نحو الدولة العثمانية كانت قد أجبرت أن تضع محمد علي بين نارين فلجأ إلى السلاح العاطفة. وفي مذكرة وجهها للوزير نيسلرود عبر له عن ثقته "بأن تعود الدول الأوروبية لتضمر له شعوراً أكثر ودية، وأسف لأن يراها تعارض مراميه، ثم طالب بأن يعترف له بحق الوراثة، وقال أنه يكتفي بذلك الآن، ولكنه سيجد نفسه مجبراً إذا ما عارضته أوروبا بصورة جذرية على اللجوء إلى السلاح للحصول على الاستقلال"^(٨). وفي العام ١٨٣٩م دخلت الأزمة طورها الحاسم، خاصة بعد إعلان استقلال محمد علي فسعى إلى محاولة رد الهجوم على القوات المصرية في الجبهة السورية، وكان الجيش العثماني قد اجتاز الفرات في ٢١ نيسان متحدياً بذلك الجيش المصري، وهكذا لم تعد القضية مجرد استقلال أو قضية وراثة محمد علي

(١) محمد كمال دسوقي، المدر السابق، ص ١٦٥.

(٢) علي يوسف البلخي، "الموقف الدولي من احتلال محمد علي لبلاد الشام ١٨٣٩، ١٨٤٠ من خلال الوثائق العثمانية" مجلة دراسات تاريخية، العددان (١٩-٢٠) نيسان/تموز، ١٩٨٥، ص ٢٠٠.

(٣) مكي جميل، تاريخ المسألة الشرقية، المكتبة العصرية، بغداد، ١٩٢٦، ص ٢٧.

(٤) محمد جميل بيهيم، الحلقة المفقودة في تاريخ العرب، ط ١، القاهرة، ١٩٥٠، ص ٢٣٠.

(٥) عمر عبد العزيز عمرن دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، بيروت، (١٩٧٥)، ص ١٧٧-١٧٨- وكذلك ينظر علي سلطان، تاريخ الدولة العثمانية، طرابلس، منشورات مكتبة طرابلس د.ت، ص ٢٩٠.

(٦) محمد كمال دسوقي، المصدر السابق، ص ١٧١.

(٧) محمد حبيب صالح، "الدبلوماسية الروسية في مصر وبلاد الشام خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر" مجلة دراسات تاريخية، العددان ٦٧-٦٨، كانون الثاني وحزيران، ١٩٩٩، ص ٢٢١.

(٨) مكي جميل، المصدر السابق، ص ٣٣.

للحكم، وإنما أصبح الموقف أكثر خطورة، وأصبح الموقف أكثر خطورة، وأصبح في طور الصراع الدولي بين كل من بريطانيا وحليفتها الدولة العثمانية وبين محمد علي وجرت معركة بين الطرفين قرب (نصيبين) الواقعة بين الفرات وحلب^(١)، وبعد ساعتين من بدئها انتهت بهزيمة الجيش العثماني في ٢٤/حزيران ١٨٣٩، ولكن تطورات الموقف أجبرت الدولة العثمانية على خوض المعركة^(٢). فاضمحت جميع الآمال في استرجاع سورية وإخضاع الوالي محمد علي للسلطان^(٣). أبدت الدول الكبرى دهشتها واستيائها، ولم يتوقف إبراهيم باشا عند هذا الانتصار وإنما توجه نحو أورفة وقونية وأراد أن يعبر جبال طوروس، ولكن تعليمات والده أبلغته أن ينتظر. ولم تكن من مصلحته في هذه الفترة التوقف والانتظار إذا أتاحت الفرصة أمام بريطانيا والدولة العثمانية من أجل أن تستعيد قواتهما وفي تلك الفترة توفي السلطان محمود الثاني في ٢٩/حزيران ١٨٣٩، وتسلم من بعده عبد المجيد^(٤)، ولقد سلم القبول أحمد فوزي باشا الأسطول العثماني لوالي مصر في/ تموز وتتضمن جميع قطع الأسطول العثماني. إن انتصارات الجيش المصري في نصيبين قد وضعت المسألة المصرية خاصة، ومسألة التوازن الأوربي عامة موضع البحث والتعمق في النظر إذ إن هذا الانتصار وغيرها من الانتصارات الكبيرة التي حققها والي مصر من خلال قواده في سوريا والجزيرة العربية قد أحدث إخلالاً في التوازن الأوربي، فضلاً عن تداعي أركان الدولة العثمانية^(٥).

ثالثاً- معاهدة لندن ١٨٤٠

وهي المعاهدة الدولية التي فرضت على مصر، فقد وضعت تسوية لندن حدود إبعاد الباشاوية المصرية، وتضمنت العلاقة بين الباب العالي وباشاوات مصر من محمد علي وحلفاؤه، وقد فتحت هذه المعاهدة فيما بعد التدفق للنفوذ الاستعماري الأوربي، ولا سيما الإنكليزي والفرنسي^(٦). إلى مصر، قدم بالمرستون^(٧) مسودة مشروع اتفاقية للأعضاء الخمس المشاركين في المؤتمر، وخاصة السفير الروسي، وفي ١٩ كانون الثاني عام ١٨٤٠م، والتي عُدت أساساً للمفاوضات التي انتهت بتوقيع معاهدة لندن في ١٥ تموز ١٨٤٠م^(٨). وكانت هذه المعاهدة مفاجئة بالنسبة لمصر وفرنسا عند التوقيع عليها لذلك هاجت فرنسا وتوترت العلاقات بينها وبين بريطانيا وكادت أن تقع الحرب، ولكن فرنسا لم تكن تحتل حراً مع أوروبا لذلك تركت محمد علي يواجه نتائج هذه المعاهدة لوحده^(٩)، ولقد حملت عدة شروط أبرزها:

أولاً- أن يخول لمحمد علي وخلفائه حكم مصر وراثياً وكون له مدى حياته حكم المنطقة الجنوبية من سورية (ولاية عكا فلسطين).

(١) محمد حسن العبدروس، تاريخ العرب الحديث، دبين دار الكتاب الحديث، ٢٠٠٠، ص ٢٦٣.

(٢) عبد الرحمن زكي، التاريخ الحربي لعصر محمد علي الكبير، دار المعارف، مصر، ١٩٥٠، ص ٤٣٧.

(٣) كريم ثابت، محمد علي، ط ٢، مصر، مطبعة المعارف، ١٩٤٣، ص ٢٢٠.

(٤) جاكليين بيرين، اكتشاف جزيرة العرب، خمسة قرون من المغامرة والعلم، ترجمة، قدرى قلججي، بيروت منشورات الفاخرية ودار الكتاب العربي، د.ت، ص ٣٣٨.

(٥) جوزيف حجار، أوروبا ومصير الشرق العربي، حرب الاستعمار على محمد علي والنهضة العربية ترجمة، بطرس حلاق وماجد نعمة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٦، ص ١٦٠.

(٦) محمد أنيس، الدولة العثمانية والشرق العربي ١٥١٤-١٩١٤، القاهرة دار الجيل للطباعة، د.ت، ص ٢٠٢.

(٧) بالمرستون: هنري جون تمبل الفايكاونت بالمرستون، ولد في ٢٠ ت ١٧٨٤، درس في مدينة هارو، ثم ذهب إلى جامعة أدنبرة لدراسة الفلسفة عام (١٨٠٠)، أصبح عضواً في البرلمان عام (١٨٠٧)، أصبح وزيراً للخارجية (١٨٣٥-١٨٤١) ولمدة ثانية (١٨٤٦-١٨٥١)، ووزيراً للداخلية (١٨٥٢-١٨٥٥)، ورئيساً للوزراء (١٨٥٥-١٨٥٨) ومرة ثانية (١٨٥٩-١٨٦٥) وتوفي في ١٨ ت ١٨٦٥. للمزيد من التفاصيل ينظر: سامي صالح محمد، الصراع البريطاني الفرنسي على مشروع قناة السويس ١٨٥٤-١٨٦٩، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة بغداد، كلية الآداب، ٢٠٠٦، ص ٥٤.

(٨) الياس الأيوبي، محمد علي سيرته وأعماله وآثاره، مصر، دار الهلال، ١٩٢٣، ص ١٣٢.

(٩) عبد الرحمن الراجعي، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، ج ٢، ط ٣، مكتبة النهضة، ١٩٥٨، ص ٣٣٦.

ثانياً- إذا لم يقبل هذا القرار في مدة عشرة أيام يحرم من ولاية عكا ويمهل عشرة أيام أخرى لقبول الحكم الوراثي لمصر فحسب، ويسحب جنوده من جميع البلاد العثمانية وإرجاع الأسطول العثماني فإذا انقضت هذه المهلة دون قبول الشروط كان السلطان في حل في حرمانه ولاية مصر^(١).

ثالثاً- يدفع محمد علي جزية سنوياً للباب العالي تتبع في نسبتها على البلاد التي تعهد إليه إدارتها^(٢).

رابعاً- تسري في مصر وفي عكا المعاهدة التي أبرمتها السلطنة العثمانية وقوانينها الأساسية.

خامساً- تعد قوات مصر البرية والبحرية جزءاً من قوات السلطنة العثمانية ومعدة لخدمتها متى احتاجت لها.

سادساً- يتكفل الحلفاء في حالة رفض محمد علي تلك الشروط أن يلجئوا إلى وسائل القوة لتنفيذها.

سابعاً- إذا لم يذعن محمد علي للشروط وجرّد (أي سحب) قواته البرية والبحرية على استانبول، فيتعهد الحلفاء بأن يتخذوا بناء على طلب السلطان العثماني كل الوسائل لحماية عرشه.

لقد منحت لمحمد علي عشرة أيام لتنفيذ هذه البنود وإذ لم يذعن فإنه مرة أخرى وحسب هذا الإنذار الثاني فإنه إن لم يذعن فإنه يعامل معاملة عاصٍ وتقدم الدول العاقدة لهذه الاتفاقية الدعم العسكري والبحري للسلطان لطرد محمد علي. إلا إن محمد علي رفض إنذار الحلفاء وأعلن أنه يحافظ بالسيف على ما ربحه بالسيف، ورداً على رفض محمد علي لشروط معاهدة لندن والتي هي في الأساس كانت صيغت لكي يرفضها وكان هذا مقصوداً لكي تشن عليه الحرب وفعلاً بدأت كل من بريطانيا والنمسا مع الدولة العثمانية بعمليات حربية ضده. ووصل الأسطول الإنكليزي سواحل سوريا وأنزلت قوات إنكليزية في ١١ أيلول ١٨٤٠ في شمال بيروت، وفوجئ الجيش المصري بوضع حرج^(٣)، وخاصة أن قوات إبراهيم باشا كانت قواته مبعثرة في جميع أنحاء سوريا، وكانت تقاسي من الأمراض وسوء التغذية وقطعت الاتصالات بين مصر وسوريا وقامت ثورة بدعم إنكليزي واستطاع الثوار احتلال المدن الساحلية، في ١٠ تشرين الأول أكتوبر/ ١٨٤٠م، سحق الجنود الثوار الجيش المصري بالقرب من بيروت فاضطروا إلى إخلاء المنطقة ثم انتشرت الثورات والقوات البريطانية في جنوب سوريا واستطاعت أن تهزم الجيش وفي ١٦ تشرين الأول دخلت قوات حليفة طرابلس والشام وبسطوا يدهم على جميع سواحل لبنان، أما إبراهيم باشا فلقد عبر صحراء سيناء ورحل إلى القاهرة في ٤ تشرين الثاني ١٨٤٠، وفي الفترة نفسها اقترب الأسطول البريطاني بقيادة نابير من الإسكندرية وقدم إنذاراً لمحمد علي. لقد كان للخطر البريطاني وللخسارة التي منيت بها القوات المصرية في سوريا ولبنان ولعدم مساعدة فرنسا وراء استسلام محمد علي وقبوله شروط معاهدة لندن^(٤) إن معاهدة لندن نجحت في تقرير المبدأ الجوهري الذي أرادت منه بريطانيا خدمة مصالحها الذاتية قبل أي اعتبار آخر وهو بقاء مصر جزءاً من الدولة العثمانية بالرغم من إعطاء أسرة محمد علي الحكم الوراثي، ولقد اكتسبت صيغة دولية ظاهرة^(٥) ولكن هذه التسوية كانت ضعيفة فالدول التي أرادت بها خدمة مآربها في المحافظة على كيانها الدولة العثمانية تهرباً من مشكلة ملء الفراغ، ثم حرصاً على التوازن الدولي لم تدخل في اعتبارها، ضرورة، تنظيم العلاقة بين مصر والدولة العثمانية قواعد ثابتة فكانت هذه التسوية محور كل ما طرأ بعد ذلك من اضطراب وقلق في العلاقات العثمانية - المصرية. وفي ١٣ شباط ١٨٤١ صدر فرمان سلطاني نص على أن مصر ستصبح ولاية وراثية في أولاد محمد علي وأحفاده ومقابل ذلك يدفع محمد علي إلى والي الباب العالي (٨٠٠.٠٠٠) ثمانين ألف كيس (أقجة) بوصفها وراثاً سنوياً وقد

(١) عمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٤، ص ٣٢٠.

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى، مصر والمسألة المصرية، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٥، ص ٩.

(٣) محمد كمال دسوقي، المصدر السابق، ص ١٧٨.

(٤) عمر عبد العزيز عمر، المصدر السابق، ص ١٨٢.

(٥) محمد فؤاد شكري، مصر والسودان تاريخ وحدة وادي النيل السياسية في القرن التاسع عشر، ط ٣، مصر، دار المعارف، ١٩٦٣، ص ١٨-١٩.

منحت ولايات (النوبة ودار فور وكردفان وسنار) لمحمد علي مدى الحياة فقط وأخيراً فأن محمد علي حاول جاهداً أن يبني دولة عربية موحدة.^(١)

المبحث الثاني

الظروف والأسباب التي أدت إلى حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦)

إن الظروف والأسباب التي أدت إلى حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦) لا تزال تثير الكثير من الجدل وخاصة إذا ما وضعت الأسباب الدينية والمتعلقة بالطموح الشخصي موضع الاعتبار الأول، وهناك إهمال كبير من قبل بعض المؤرخين للأسباب الإستراتيجية الدولية والتي لها دور هام في نشوب حرب القرم ويمكن أن يكون السبب الأول ويليه عامل الاقتصادي والسبب الأخير هو العامل الديني، وعلى هذا الأساس ندرس الظروف التي أدت إلى نشوب حرب القرم، وهي ...

أولاً- الأسباب الإستراتيجية أو الدولية

والبواخر مرة أخرى إلى الهند مباشرة ومعنى هذا إن الشرق العربي أصبح على جانب كبير من الأهمية لسرعة نقل التجارة البريطانية التي أصبحت تُنتج وبكميات ضخمة والتي لا يستطيع طريق رأس الرجاء الصالح نقلها بالسرعة المطلوبة إلى الهند لطول الطريق ولعدم قدرة البواخر على قطع هذه المسافة الطويلة من أوروبا ثم حول أفريقيا وصولاً إلى الهند، دون التعرض إلى المتاعب الفنية التي تجعل تكاليف الرحلة غالية بدرجة تؤدي إلى إن ينتفي الهدف الاقتصادي من وراء إرسال البضائع بواسطة البواخر إلى الشرق الأقصى أو جلب البضائع منه إلى أوروبا في الوقت المناسب فأدى هذا الانقلاب الجديد في خطوط المواصلات العالمية إلى ارتفاع تجارة العراق ومصر لدى كل من بريطانيا (ذات المستعمرات الواسعة في الشرق الأقصى) وفرنسا التي كانت تفكر بحماس في مشروع شق قناة السويس^(٢)، وفي مد خط بري لربط البحر المتوسط بالخليج العربي فضلاً عن تطلعات فرنسا الاستعمارية وحيث إن الدولة العثمانية كانت لا تعارض كثيراً أو بالأحرى لا تستطيع إن تعارض مشروعات بريطانيا وفرنسا في الولايات العثمانية العربية فأن ظهور أي قوة أوروبية على مسرح هذه الولايات سيؤدي إلى إصابة المشروعات البريطانية والفرنسية بشلل كبير والأخطر من ذلك على بريطانيا وفرنسا إن تستولي روسيا على القسطنطينية وأن تطلق الأساطيل الروسية من البحر الأسود إلى البحر المتوسط.

وكان (ستراتفورد دي رد بكليف) السياسي الانكليزي أكثر الدبلوماسيين إدراكاً للقيمة الإستراتيجية والاقتصادية للشرق العربي كما كان هو الذي يعرقل المشروعات الفرنسية للمواصلات العالمية عبر الشرق العربي أيضاً ومن ثم كان حصول روسيا على تفوق سياسي في الدولة العثمانية يعني السماح لروسيا بالانطلاق ليس سوى مساواة بين كل الأطراف للعمل في البحر المتوسط وكان هناك تساؤل لماذا يعتبر احتلال روسيا للقسطنطينية وهو هدف روسي كبير إخلاله بالتوازن الدولي وتعدياً على الحقوق وعدواناً لا يغتفر في الوقت الذي لا يقال عن الاحتلال البريطاني لمالطا وجبل طارق نفس الشيء؟ إن الحقيقة التي لا يبرزها المؤرخون الغربيون هي إن مفهوم التوازن الدولي

(١) عدنان حسين الشخيلي، الفكر القومي العربي في مصر ١٨٨٢-١٩٢٢، رسالة ماجستير غير منشورة تقدم بها إلى المعهد العالي للدراسات القومية والاشتراكية بالجامعة المستنصرية، ١٩٨٠، ص ١٨.

(٢) ومن الجدير بالذكر أنه يطلق على قناة السويس اسم (ميزان التجارة الدولية) وهذا التقدير بالغ الأهمية بالنسبة إلى الناحية الاقتصادية والحيوية للقناة إذ إن معظم الدول والتي تمتلك أسطول بحري تجاري وتستخدم القناة كممر لسفنها، يبلغ طول القناة ١٧٣ كيلو متراً وهي بتلك تعد من أطول القنوات المفتوحة بدون (هويس) في العالم، وتمر في القناة خلال الأوقات العادية سفن يبلغ غاطسها (١٠٠٣٥ متراً) بحدود (٣٥ قدماً) وهذا يعني أن تمر أبر السفن الحربية التي تصل حمولاتها إلى عشرات الآلاف من الأطنان، وقد زادت إمكانية عبور السفن في اتجاهين بالقناة على أثر افتتاح قناة فرعية يبلغ طوله (١٣ كيلو متراً) عام ١٩٥١، ويبلغ متوسط الوقت اللازم لعبور قناة سنة ١٩٥٦ بحدود اثني عشر ساعة، جاليناس نيكيتا، قناة السويس ملكية وطنية للشعب المصريين ترجمة إبراهيم عامر، القاهرة، الدار المصرية للطباعة، ١٩٥٧، ص ٦، وكذلك ينظر محمود صالي منسى، مشروع قناة السويس بين أتباع سان سيمون وفردنان دي ليسبس دراسة وثائقية للجهود الفنية والدبلوماسية من أجل شق طريق مائي في برزخ السويس حتى عام ١٨٥٦، القاهرة، دار الاتحاد العربي للطباعة، ١٩٧١.

حينذاك يعني في أساسه بقاء بريطانيا متفوقة وفيما عدا ذلك يعتبر إخلال التوازن الدولي^(١). إن ادعاء بريطانيا الدفاع عن الدولة العثمانية الضعيفة أمام العدوان الروسي ليس سوى إخفاء لهدف آخر هو إن السيطرة الروسية على القسطنطينية كان تعني اختلالاً للتوازن الدولي من وجهة النظر الروسية هو إن تكون لها قواعد على نفس المستوى الذي كانت تمتلكه كل من فرنسا وبريطانيا في البحر المتوسط ولتكن القسطنطينية هي القاعدة وحيث إن القسطنطينية لم تكن مجرد عاصمة عثمانية وإنما كانت مفتاح البحر المتوسط فقط كان وقوعها سياسياً وعسكرياً بيد الروس يؤدي أن لا يصبح البحر المتوسط الطريق الهادئ إلى الهند بالنسبة إلى بريطانيا وحيث أن الأسطول الروسي كان قد بلغ درجة من القوة القادرة على أن تسيطر سيطرة كاملة تقريباً في البحر الأسود في وجه أسطول عثماني ناشئ فقد كان من الضروري من وجهة نظر بريطانية تحقيق الأهداف الرئيسية التالية بعد وقوع الهجوم البحري الروسي على ميناء (سينوب) العثماني.

١- منع الأسطول الروسي من التفوق الكامل في البحر الأسود.

٢- منع الأسطول الروسي من الانطلاق عبر مضائق العثمانية إلى البحر المتوسط.

إذا ما قرننا بين الهجوم البحري الروسي على الأسطول العثماني في ميناء (سينوب) عام ١٨٥٣ والهجوم البحري الانكليزي على الأسطول الدنماركي المحايد لودنا أن الهجوم الثاني ينطوي على خرق كامل للقانون الدولي بعكس الهجوم الروسي على ميناء (سينوب) الذي وقع بعد إعلان الحرب على الدولة العثمانية، لقد كانت المحافظة على كيان الدولة العثمانية وهي السياسة التي أتبعها وأعلنتها بريطانيا إزاء التوسع الروسي على حساب الدولة العثمانية تخدم المصالح البريطانية أولاً وقبل كل شيء فالدولة العثمانية بمثابة حاجز بين روسيا والبحر المتوسط ولم يكن الوقت قد حان بعد من وجهة النظر البريطانية لاقتسام الدولة العثمانية^(٢) وهو الاقتسام الذي تدعو إليه روسيا ومما يزيد من الخطر الروسي على المصالح البريطانية في البحر المتوسط إن البلقان كان يتطلع إلى روسيا كحامية للعنصر السلافي وكقوة صليبية أوربية ضد العثمانيين والمسلمين وكان هذا الميل الطبيعي من جانب البلقان نحو روسيا يخلق حقداً شديداً في الدوائر البريطانية الكارهة لأي نفوذ روسي مطلق على البحر المتوسط ومن ثم كان على الدوائر البريطانية السياسية إن تفقد الشعوب البلقانية ثقافتها في روسيا وهذا الأمر لا يأتي إلا بتوجيه ضربة عسكرية إلى روسيا.

ثانياً - العامل الاقتصادي

لقد كانت روسيا خلال فترة التي أعقبت الحروب النابليونية معينة بزيادة حجم صادراتها وخاصة من القمح الذي يزرع في مساحات شاسعة من الإمبراطورية القيصرية وكان ميناء (أوديسا) من أهم الموانئ التي تصدر عن طريقه قمحها، وكانت في البلقان ولايتان هما الافلاق والبغدان (ولاشيا وملداقيا) التين كانتا تصدران كميات كبيرة من القمح تتنافس بشدة الصادرات الروسية وكانت لدى روسيا بعض النفوذ الذي يمكنها من التحكم في الصادرات القمح من الولاياتين الرومانييتين ولكن القيصر كان يريد السيطرة الكاملة على هاتين الولايتين لهذا الهدف ولأنهما تمكناه من التحكم في البلقان العثماني بما يفسح المجال له الغرض فرض وصاية روسية على الأقل وعلى أجزاء من البلقان إن لم يستطيع السيطرة عليها كلها . ومن ناحية أخرى كان فتح البحر المتوسط أمام التجارة الروسية أمراً يزعج التجار والصناعيين الانكليز الذين أخرجتهم الحواجز الكمركية التي وضعها القيصر لإنعاش التجارة والصناعة الروسية الناشئة في الوقت الذي كانت فيه بريطانيا ترى إن الأسواق الروسية قادرة على تصريف المنتجات الانكليزية...

ثالثاً - العامل الديني

(١) شوقي عطا الله الجمل وعبد الله عبد الرزاق إبراهيم، تاريخ أوربا عصر النهضة إلى الحرب الباردة، القاهرة، مطبعة المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، ٢٠٠٠، ص ٢١٤.

(٢) شوقي عطا الله الجمل عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، المصدر السابق، ص ٢١٥.

لقد لجأت روسيا إلى إثارة المشاكل مع الدولة العثمانية عن طريق مطالبتها بامتيازات بشأن الأماكن المسيحية المقدسة في القدس، وبحق رعاية مصالح المسيحيين الأرثوذكس في الدولة العثمانية فرفضت لدولة العثمانية ذلك^(١). وبحكم اعتناق روسيا للمذهب الأرثوذكسي المسيحي الشرقي كانت ترى نفسها وريثة للدولة البيزنطية نية، ويحلُم قياصرتها بذلك اليوم الذي يستطيعون به دخول القسطنطينية وكانت مصالحها الجغرافية والمادية الإستراتيجية تقضي بضرورة تحديد علاقتها بالدولة التي تسيطر على مضائق (البسفور والدرينيل) أما عن طريق القضاء عليها، أو على الأقل ضمان حرية المرور، وفي كل الأوقات لسفنها التجارية والحربية وإغلاق هذه الممرات أمام هذه سفن أعداء روسيا^(٢). لقد أصبحت روسيا في الواقع بعد الثورة الفرنسية^(٣) الدولة الأوروبية الكبرى الوحيدة التي تضع الفكر الصليبي في مقدمة سياستها الخارجية، وكان كثير من الساسة الروس يتعجبون من إن أوروبا لا تشد أزرهم ضد الدولة العثمانية زعيمة العالم الإسلامي، ولكن الفكرة الصليبية التي كانت تلقى ترحيباً لدى شعوب البلقان لم تكن كذلك لدى الفرنسيين والانكليز الذين كانت لهم اتجاهاتهم الصليبية أيضاً ولكن بشكل مختلف فليس شن الحروب على طريقة الحروب الصليبية في العصور الوسطى هو أسلوب العمل الصليبي المجدي لدى بريطانيا وفرنسا في القرن التاسع عشر فالتبشير الانكليزي بروتستانتيا وكانت الكنيسة القومية البريطانية في خدمة المصالح البريطانية إلى جانب الدين كذلك الأهداف الفرنسية، وكان النشاط التبشيري البروتستانتي في الدولة العثمانية ناجحاً تحت حماية البريطانية، كما كان النشاط الكاثوليكي هناك نامياً في وجه مقاومة تبشيره بروتستانتية قوية ولكنها كانت مواجهات تخدم في النهاية أهداف التبشير المسيحي، فكان من الطبيعي أن يدخل القيصر الروسي رأس الكنيسة في مجال هذا التنافس التبشيري في الدولة العثمانية فكان أو وقع الصدام في بيت المقدس بين رجال الدين الكاثوليك ورجال الدين الأرثوذكس ليتحول إلى مواجهة كبرى باسم الدين المسيحي، والحقيقة إن العامل الديني كان أقل العوامل من حيث الأزمة إلى حرب إلا إنه هو الذي ظهر كسبب مباشر للحرب.

رابعاً- الأسباب الشخصية

إن العامل الشخصي في حرب القرم له أهميته ولكن يجب أن لا نعطي له الأهمية الأولى فقلد كان لشخصية القيصر ولشخصية نابليون الثالث ولشخصية ردكليف^(٤) فبالنسبة إلى القيصر الروسي (نيقولا الثالث) كان قد اقتنع بأن الظروف أصبح مواتية تماماً لأن ينفذ ما عجز أسلافه عنه وهو اقتسام الدولة العثمانية على اعتبار انه لو أفجَم في حربٍ ضد الدولة العثمانية واستولى على المضائق وجعل الشعوب البلقان تستقل تحت حمايته وترك بريطانيا تحكم مصر، فأن بريطانيا ستوافق في الحال ويتحقق هذا الهدف الكبير بهذه الطريقة دون إراقة دماء أوروبية ولكن غاب عنه عدد من الأمور منها

أولاً- إن الساسة في بريطانيا كانوا يعتقدون ان زمن اقتسام الدولة العثمانية لم يحن بعد.

ثانياً- إن بريطانيا كانت تحتقر القيصر وشعبه وتتنظر إليه وإلى شعبه على أنه في مستوى أدنى من أن يتولى بنفسه هذه الأمور التي كانت في نظر الانكليز حينذاك تعدياً على الشعب العثماني الصديق وقد لعبت الثقافة وعلى مختلف مستوياتها دوراً جوهرياً في تشويه سمعة روسيا بين أفراد الشعب الانكليزي فالشعراء والصحفيون والكتاب كانوا قساة على روسيا وعلى تأخرها في ركب الحضارة ومع إن هناك شعوباً أوروبية كانت هي الأخرى متخلفة وإن كانت بدرجة أقل. ومن هنا كانت كراهية الانكليز للروس تشمل الحكومة والشعب على حد سواء وكانوا يرون في حكومة القيصر قوة رجعية صلبة الشكيمة ساعدت على كبت الثورات التحررية في أوروبا، وخاصة في كبت ثورة البلقان وفي تأييد النمسا ضد بروسيا عام ١٨٥٠^(٥). ولم يكن الهجوم الصحفي البريطاني على حكومات النمسا وأسبانيا بمثل القسوة التي كانت موجهة ضد القيصر الروسي، وكان السفير البريطاني في الأستانة وردكليف يدرك حقيقة كراهية الشعب البريطاني وحكومته

(١) شوقي عطا الله الجمل وعبد الرزاق إبراهيم، المصدر السابق، ٢١٦.

(٢) عمر عبد العزيز عمر، تأريخ أوروبا الحديث والمعاصر ١٨١٥-١٩١٩، الإسكندرية مطبعة دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٠، ص ٩٨.

(٣) لمزيد عن الثورة الفرنسية ينظر: لويس عوض، الثورة الفرنسية، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب العامة، ١٩٩٢. وكذلك ينظر برنار غروتيزن، فلسفة الثورة الفرنسية، ترجمة عيسى عصفور، ط٢، بيروت، منشورات البحر المتوسط، ١٩٨٢.

(٤) جمال محمود صبحي، المصدر السابق، ص ٨١.

(٥) شوقي عطا الله الجمل وعبد الله عبد الرزاق إبراهيم، المصدر السابق، ص ٢١٨.

للقيصر كما أنه كان دائماً يحث السلطان العثماني على أن يكون متطلباً إزاء المطالب الروسية، ومؤكداً له أن بريطانيا بأسطولها وشعبها يقف رواء الدولة العثمانية ضد روسيا وكان هو نفسه يشد من أزر السلطان العثماني خلال أزماته مع القيصر وكانت الدوائر في الدولة العثمانية نفسها تدرك هذا تماماً فضلاً عن ردكليف فقد كان له نفوذاً كبيراً في الدولة العثمانية حتى أطلقوا عليه لقب (سلطان الدولة العثمانية الغير متوج).

ثالثاً- كان القيصر روسيا مكروهاً من قبل نابليون الثالث حيث كان الأخير يشعر بأن الاعتراف به إمبراطوراً من الأمور الجوهرية وكان قيصر روسيا ينظر بعين الحقد والحذر الشديدين لعودة الإمبراطورية الفرنسية وتوقع من وراء ذلك شراً لروسيا ولذلك لم يخاطب نابليون الثالث بكلمة أخي وهي الكلمة التي تعارف عليها الأباطرة في تخاطب بعضهم البعض، من هناك كانت الكراهية الشخصية بين نابليون الثالث ونيقولا الثالث يدرك كم أصبح قيصر روسيا عدواً لانكلترا حكومة وشعباً وفي نفس الوقت كانت سياسة نابليون الثالث تهدف إلى توثيق التعاون مع بريطانيا في مجالات السياسة الدولية، فهو إمبراطور جديد يريد أن يحرز مكانة عليا لفرنسا ولكن دون أن يتورط مثل عمه (نابليون الأول)^(١) في حروب مع بريطانيا.^(٢)

المبحث الثالث

الانتصار الروسي وسير عمليات حرب القرم ونتائجها

أولاً- الانتصار الروسي

أيقن صناع القرار في الحكومة البريطانية إن تأكيد التزامهم باتباع سياستهم التقليدية تجاه حماية كيان الدولة العثمانية من الانهيار على أيدي الفرنسيين أو الروس أو كليهما. كما أقروا إن الخلافات الفرنسية-البريطانية لا تتضارب والسياسة العامة لبريطانيا في أوروبا والشرق الأوسط في آسيا، كما إن موقف فرنسا من روسيا يعتبر مسائراً اتجاهات السياسة البريطانية، وإن الدور الذي يجب على بريطانيا الحرص عليه هو تأمين منطقة البلقان الأرثوذكسية باعتبارها منطقة مهمة في حفظ التوازن الدولي ولهذا فأن منحها الاستقلال يعتبر أفضل لبريطانيا من وقوعها تحت النفوذ الروسي أو النمساوي، وفي الوقت الذي وصلت فيه البعثة الروسية إلى الأستانة، وخلال فترة الحوار مع بريطانيا حول مستقبل الرجل المريض كانت روسيا قد استعدت عسكرياً لتنفيذ خطتها في الدولة العثمانية^(٣) وطالبت

(١) ولد نابليون بونابرت في مدينة اجاكسيو وهي إحدى مدن جزيرة كورسيكا سنة ١٧٦٩ بعد عام من انضمامها لفرنسا في أسرة كانت في الأصل من نبلاء إيطاليا وكان هذا السبب تكلم نابليون بلكنة ايطالية. والتحق نابليون وهو في التاسعة من عمره بمدرسة عسكرية فرنسية وأظهر تفوقاً في الرياضيات والفنون الحربية، وتخرج منها سنة ١٧٨٤ ليدخل الكلية الحربية الملكية في باريس حيث أنهى دراسته في عام واحد بدلاً من عامين -كما كان مقرراً- برتبة ملازم ثانٍ، وكان قد تأثر بأفكار جان جاك روسو وبالثورة الفرنسية نظراً لنبوغه وذكائه الحاد، لبدأ حياته العلمية وهو في السادسة عشر من عمره وكان أول ظهور له عندما تعاون مع حزب اليقاقة، واشتهر بحصار طولون في عام ١٧٩٦ تزوج من جوزفين وهي أرملة أحد القواد الفرنسيين. وكان نابليون طموحاً جداً ذا خيال واسع يفكر في تأسيس إمبراطورية فرنسية على غرار إمبراطورية الأسكندر المقدوني، وقد ساعدته الظروف ومقدرته النادرة وخبرته في الحرب والسياسة على القيام بأعماله الواسعة ونضاله ومعاركه ضد الدول الأوروبية الأمر الذي أدى به إلى إن يخسر آخر معركة قادها إلا وهي معركة واترلو سنة ١٨١٥ حيث هرب وسلم نفسه إلى سفينة انكليزية فنفي إلى جزيرة سانت هيلانة في المحيط الأطلسي ليموت هناك في سنة ١٨٢١. لمزيد من التفاصيل ينظر

Ar. Wikipedia. Org/wiki

(٢) شوقي عطا الجمل وعبد الرزاق إبراهيم، المصدر السابق، ص ٢١٨.

(٣) مما تجدر الإشارة إليه أن الدولة العثمانية كانت قد خاضت مع روسيا حوالي عشرة حروب، كانت أولى هذه الحروب عام ١٦٧٦ وانتهت في عام ١٦٨١ وآخر تلك الحروب كانت في عام ١٨٧٧ وانتهت في عام ١٨٧٨ لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع ينظر كمال مظهر أحمد، دراسات في تاريخ إيران الحديث والمعاصر، بغداد، مطبعة أركان، ١٩٨٥، ص ١٢.

بإعلان إغلاق الدردنيل أمام سفن كل من فرنسا وبريطانيا كما طالبت بعزل كل من رئيس الوزراء ووزير الخارجية في أيار عام ١٨٥٣^(١)، ويبدو إن هذا الإجراء كان محاولة جادة من قبل بريطانيا لإيقاع القيصر الروسي في المصيدة بإجراجه وتعرية موقعه فلم يكن من السهل على القيصر الروسي إن يخضع للتهديد الفرنسي- البريطاني أو أن يتخلى عن الأراضي التي احتلتها القوات الروسية. لم تهدف الدولتان المتحالفتان (بريطانيا وفرنسا) إلى إعلان الحرب على روسيا من أجل ولايتين أوروبيتين اقتطعا من الدولة العثمانية فكل ما كان يهمهما أن لا تسقط اسطنبول أو المضائق العثمانية بيد روسيا وأن لا يصل الروس على البحر المتوسط. تعتبر حرب القرم من أهم الحروب التي خاضتها الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر، وقد اشتركت فيها بريطانيا وفرنسا إلى جانب الدولة العثمانية، وهي أنما سميت بهذا الاسم لحدوث أهم معاركها في شبه جزيرة القرم التي تقع في شمال البحر الأسود.^(٢) كان السبب المباشر في للحرب هو ما وقع من خصام عنيف في مدينة القدس بين رهبان الكاثوليك والأرثوذكس، فانتهز قيصر روسيا الفرصة وقدم إنذار إلى الحكومة العثمانية يطلب منها أن تعترف به اعترافاً رسمياً بأنه حامي جميع رعايا الأرثوذكس في البلاد العثمانية، وأسرع السفير البريطاني كانغ يرض المسؤولين العثمانيين على رفض الإنذار ومن هنا أخذت الأزمة تشد شيئاً فشيئاً. وفي أثناء ذلك وبينما كانت الأزمة في عنفوان اشتدادها، جرت مقابلة بين قيصر روسيا وسفير بريطانيا بطرس بيرغ (هاملتون سيمور)، فدار الحديث بينهما حول "الرجل المريض" أي -مصير الدولة العثمانية- فاقترح القيصر إجراء "عملية عاجلة لها لتجنب خطر انهيار المفاجئ وما يصحبه من فوضى قد تع أوروبا بأسرها، وابدئ القيصر استعداداته أن يقوم هو بالعملية وأن يقدم مصر وجزيرة كريت إلى بريطانيا تعويضاً لها، فرد السفير البريطاني قائلاً: "إن جلالتم تتحدثون عن رجل مريض، فأعذرني يا صاحب الجلالة إذا أنا لفت نظركم إلى أن واجب القوي هو حماية الضعيف وليس الإجهاز عليه". نشبت الحرب في شهر تموز من عام ١٨٥٣، ثم اشتركت فيها بريطانيا وفرنسا في آذار من عام ١٨٥٤م. وكان لها ثلاث جبهات: جبهة الدانوب في الغرب وجبهة قفقاسيا في الشرق، وأما الجبهة الثالثة فكانت في شبه جزيرة القرم. وفي ٢٠ أيار من عام ١٨٥٣ قدم منشيوكوف اقتراح جديد إلى وزير الخارجية العثماني بان تعلق الحكومة العثمانية وثيقة رسمية تلتزم بموجبها بتأكيد جميع حقوق وامتيازات الأرثوذكس ومنحهم جميع الحقوق التي يحصل عليها أصحاب المعتقدات الأخرى في المستقبل. وعندما لم يتسلم منشيوكوف رداً على ذلك قطع اتصالاته بالمسؤولين العثمانيين ومغادرة العاصمة العثمانية^(٣). ردت روسيا على ذلك بأن أمرت قواتها باحتلال إمارتي الدانوب فقام فيلقان روسيان في ٣ تموز ١٨٥٣ بعبور نهر (بروث) والمباشرة باحتلال الإماراتين^(٤) وعندما قدمت الدولة العثمانية إنذاراً إلى روسيا بسحب قواتها من إمارتي الدانوب وعندما لم تستجب أعلنت عليها الحرب في ١٦ تشرين الأول ١٨٥٣.

[١] وردت روسيا أيضاً بإعلان الحرب. وقد رجحت كفة القوات الروسية منذ البداية حيث تمكنت من إيقاف العمليات الهجومية التي قامت بها الدولة العثمانية واحبطت محاولاتها لإخراج الجيش الروسي من إمارتي الدانوب.

[٢] وانتصرت على العثمانيين في ضواحي (قارص) فيما وراء القفقاس

[٣] وتمكن الأسطول الروسي من تدمير الأسطول العثماني في ٣٠ تشرين الثاني ١٨٥٣ وإغراقه في ميناء سينوب الذي استولى عليه الروس وأزالوا تحصيناته^(٥).

بعد أن احتلت روسيا أمارات الدانوب (رومانيا الحالية) سارعت المملكة المتحدة فوراً إلى إرسال أسطول إلى القسطنطينية (اسطنبول) لدعم الأتراك. قام الأسطول الروسي بتدمير مجموعة من السفن العثمانية في (سينويه) وقامت فرنسا والمملكة المتحدة بإرسال أساطيلها إلى البحر الأسود لحماية حركة التجارة العثمانية ثم أعلنت فرنسا والمملكة المتحدة الحرب على روسيا ثم بعد ذلك قام الروس بسحب قواتهم

(١) جمال محمود حجر، القوى الكبرى والشرق الأوسط في القرنين التاسع عشر والعشرين، تقديم عمر عبد العزيز عمر، الإسكندرية، مطبعة دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٩، ص ٨٥.

(٢) فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، دراسة تاريخية في الأوضاع الإدارية في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية مطلع العهد العثماني أواخر القرن التاسع عشر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٧، ص ٥٨٩.

(٣) هاشم صالح التكريتي، المسألة الشرقية المرحلة الأولى ١٧٧٤-١٨٥٦ بغداد، بيت الحكمة، ١٩٩٠، ص ١٧٩.

(٤) هاشم صالح التكريتي، المصدر السابق، ص ١٨٠.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٩٦-١٩٧.

من إمارات الدانوب بغية منع النمسا من الانضمام إلى التحالف ضدهم ومن ثم احتلت النمسا أمارات الدانوب. وفي (أيلول) من عام ١٨٥٤ أنزلت فرنسا والمملكة المتحدة جيوشها في بلاد القرم وضربت تلك الجيوش حصاراً على الحصون المحيطة بمدينة (سيفاستوپول) لمدة عام كامل استتبسل جنود الحلفاء في معارك (ألما) في ٢٠ أيلول ١٨٥٤ و (بالا كلاوا) في ٢٥ (تشرين الأول) ١٨٥٤، وفي (انكرمان) في الخامس من (كانون الأول) ١٨٥٤، إلا إن قوات التحالف عجزت في البداية عن اختراق الدفاعات الروسية بشكل فعال وفي (كانون الثاني) من عام ١٨٥٥ قام الكونت دي كافور بإرسال (١٠٠٠٠) جندي سرديني مجهزين تجهيزاً كاملاً لمساعدة فرنسا وبريطانيا أولاً في الحصول على دعم الرامية إلى توحيد إيطاليا^(١). وفي ١١ (أيلول) عام ١٨٥٥ تمكن الفرنسيين من شن هجوم ناجح على (مالاقوف) وهي نقطة إستراتيجية في الدفاعات الروسية واضطر الروس إلى أخلاء حصونهم وإغراق سفنهم والتخلي عن (سيفاستوپول)^(٢). بعد سقوط ميناء (سيفاستوپول) بمدة قصيرة توفي القيصر الروسي (نيقولا الأول) وخلفه في الحكم (الاسكندر الثاني) الذي عرف بتركيزه على أمور روسيا الداخلية، وبعد ذلك وافقت روسيا على شروط السلم المبدئية على مضض بعد أن أنهكت عسكرياً واقتصادياً وتم التوصل إلى السلام الكامل في معاهدة (مؤتمر باريس)

معاهدة باريس ١٨٥٦

وفي أوائل ١٨٥٦ أرسلت النمسا إنذاراً إلى روسيا تطلب فيه منها أن تقبل بالمبادئ الأربعة دون قيد أو شرط وإلا أعلنت عليها الحرب وفي ١٦ كانون الثاني سنة ١٨٥٦ أجابت روسيا بالقبول ولم تعد هناك ضرورة لدخول الحرب، توجهت الدعوة إلى مؤتمر سلام عقد في مدينة باريس وانتهى بمعاهدة الصلح المعروفة باسم معاهدة باريس والتي وقعت في ٣٠ آذار سنة ١٨٥٦ وتنص شروطها على ما يلي:

١- يعترف السلطان بالمساواة بين رعاياه على اختلاف أديانهم ومذاهبهم ويفهم من ذلك أن من حقه الاهتمام بشؤون رعاياه المسيحيين ولا يحق لدولة أجنبية التدخل في شؤونهم.

٢- تعترف الدول الأوروبية بالسيادة العثمانية على مناطق ويحضر على روسيا بناء أسطول بحري وإنشاء معامل حربية وأسلحة وبهذا يصبح البحر الأسود محايداً.

٣- إعلان حرية الملاحة في نهر الدانوب وتأليف لجنة دولية للأشراف عليها.

٤- تمتع الولايتان الدانوبيتان بالاستقلال الذاتي ضمن الأمبراطورية العثمانية.

ويقول المؤرخ الأمريكي وليم بيل في وصف حرب القرم : إنها كانت من أكثر الحروب التي نشبت بين الدول الأوروبية "غباءً وعدم فائدة" فقد كانت الخسائر في الأرواح والممتلكات هائلة، وكان أخضع ما جرى فيها حصار قلعة سيباستول وهو الحصار الذي قامت به الجيوش البريطانية والفرنسية ضد الحامية الروسية ودام سنة كاملة ولم يكن الجنود البريطانيون والفرنسيون متعودين على برد روسيا فانتشرت بهم الأمراض والعاهات. وقد انتهت الحرب أخيراً بانتصار الدولة العثمانية وحليفها بريطانيا وفرنسا ولكنه كان انتصاراً باهظ الثمن إلى ابعاد الحدود، وصرح الكثير من البريطانيين والفرنسيين ندماً: "ماذا جنينا من هذه الحرب؟"^(٣). ووقعت معاهدة باريس في عام ١٨٥٦ ونتيجة لتلك المعاهدة التي أعقبت الحرب بين الدولتين فقد أضررت الدول الأوروبية الدولة العثمانية على إصدار مرسوم أو ما يعرف بـ (خط همايون)^(٤)، وفي عام ١٨٥٦م وهو تأكيد على ما جاء في خط (كلخانة) الصادر عام ١٨٣٩م مع إضافات جديدة تتعلق بحقوق النصارى والتنظيمات الإدارية الجديدة، فكان أكثر دقة من الخط الأول، حيث تميز بوضع حد للقوة المتناهية لروسيا.^(٥) ولأسباب حربها ضد الدولة العثمانية عام (١٨٥٣-١٨٥٥) ومن أجل كسب أراضي جديدة وإيقاف حركة الإصلاحات التي بدأت تخشى منها روسيا والتأكيد على قضية الامتيازات التي حصل عليها القساوسة الكاثوليك بموجب هذه الامتيازات التي منحت لفرنسا في عصر

(١) المندى، شبكة المعلومات الدولية (انترنت) .htt shatharal com.

(٢) عبد العزيز سليمان نوار، المصدر السابق، ص ٢٤٠.

(٣) علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج ٢، ط ٢، بيروت، مطبعة دار الراشد، ٢٠٠٥، ص ٦٦-٦٧.

(٤) خلف بن دبلان بن خضر الوديعاني، الدولة العثمانية والغزو الفكري، ط ٢، مكة المكرمة، مطبعة جامعة أم القرى، ١٩٩٧، ص ٥٤٧.

(٥) ه.أ.ل. فشر، تاريخ أوروبا في العصر الحديث (١٧٨٩-١٩٥٠) ترجمة أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع، ط ٩، مطبعة دار المعارف،

سليمان الأول القانوني^(١). وهذه الامتيازات هي التي خولت للفرس امتلاك الكنائس في فلسطين وكان الروس يسعون جاهدين لبسط نفوذهم على تلك الكنائس كما هو معروف وسلب فرنسا تلك الامتيازات وأعطائها للأرثوذكس الموالين لهم لتتولى الزعامة بسبب حمايتها لهذا المذهب أو لأجل نشر نفوذها في الدولة العثمانية عن طريق تحريك رعاياهم لهذا المذهب لضرب الدولة بهم ولانشغال فرنسا في حروبها مع نابليون فقد سيطر الروس على مركز النفوذ الذي كان لفرنسا وعندما حاول نابليون إعادة هذا النفوذ اختلف مع روسيا لإنهاء هذا الأمر تحاكموا إلى الدولة العثمانية صاحبة الأمر فقررت أولوية النفوذ للكاتوليك فعارض الروس هذا القرار وهددوا الدولة العثمانية بالحرب لو صممت على هذا القرار فكانت الحرب الروسية العثمانية ، ونتيجة لهذه المعاهدة التي أعقبت الحرب بين الدولتين فقد أجبرت الدول الأوروبية الدولة العثمانية على إصدار الخط الهمايوني عام (١٨٥٦م). وقد تضمن الخط الهمايوني ما يلي.

- ١- إلغاء نظام الالتزام والقضاء على الرشوة والفساد
- ٢- المساواة في التجنيد بين المسلمين وغير المسلمين
- ٣- معاملة جميع رعايا الدولة العثمانية معاملة متساوية مهما كانت أديانهم ومذاهبهم.
- ٤- المحافظة على الحقوق والامتيازات التي يتمتع بها رؤساء الملل غير الإسلامية
- ٥- القضاء على حواجز نظام الملل، ليتمتع كل مواطني الإمبراطورية العثمانية بمواطنة عثمانية متساوية.
- ٦- أن تصبح المسائل المدنية الخاصة بالرعايا المسيحيين من اختصاص مجلس مختلط من الأهالي ورجال الدين المسيحيين يقوم الشعب بانتخابه بنفسه.
- ٧- فتح معاهد التعليم أمام المسيحيين لتفتح أمامهم وظائف الدولة .

٨- السماح للأجانب بامتلاك أراضي في الدولة كما وعد السلطان بالاستعانة برأسمال والخبرات الأوربية بهدف تطوير اقتصاد الدولة.^(٢)

إن من أبرز خصائص التنظيمات أنها كانت

- ١- من أولى الوثائق الرسمية التي لم تستمد مصدرها من الشريعة الإسلامية، بل اعتمدت على مصادر وضعية للتشريع مستوحى من التجارب والداستير الأوربية، كما أنها احتوت على مفاهيم غربية مثل (الوطن) والتي نظمها خط شريف كولخانة، بدلاً من الأمة، فكان خط شريف كولخانة هو أولى الخطوات نحو فصل الدين عن السياسة.^(٣)
- ٢- إن إقرار الأمانة الكاملة وعهد الأمان ومجلس شورى النواب أو مظاهر الأخرى مستوحاة من التجربة الغربية قد سمحت بإضفاء نوع من الشرعية على استمرار الحيف على العامة من ناحية، وفتحت الطريق لطبقة التجار الغربيين والمبشرين لإلحاق المجتمع العثماني بقوانين السوق وبمعايير الفكر التبشيري من ناحية أخرى.
- ٣- لقد تكلم خط كولخانة والهمايوني بدستور مدحت باشا عام ١٨٧٦، ولأول مرة في تاريخ الإسلام ودولة يجري العمل بدستور مأخوذ عن الدستور الفرنسي والدستور البلجيكي والدستور السويسري وهي دساتير وضعية.

ولقد وضعت تلك التنظيمات الدولة العثمانية رسمياً على طريق نهايتها كدولة إسلامية، ووضع مؤسسات تعمل بقوانين وضعية والابتعاد عن التشريع الإسلامي في مجالات التجارة والسياسة والاقتصاد، قد سحب من الدولة العثمانية شرعيتها في أنظار المسلمين

(١) تقلد السلطنة العثمانية من عام ١٥٢٠ لغاية عام ١٥٦٦، ولد سليمان القانوني في مدينة طرابزون العثمانية عام ١٤٩٦، وكان والده آنذاك والياً عليها، اهتم به والده اهتماماً كبيراً فنشأ محباً للعلم والأدب والعلماء والفقهاء واشتهر منذ شبابه بالوقار والجدية استلم مقاليد الحكم في الدولة العثمانية عندما بلغ السادسة والعشرين من عمره، لمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع ينظر علي محمد الصلابي، المصدر السابق، ١٩٢.

(٢) قيس جواد العزاوي، الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، بيروت، مطبعة المتوسط، ٣٠٠٣، ص ٦٢.

(٣) محمد علي الصلابي، المصدر السابق، ص ٣٤٦.

ناهيك أن عدو الدولة أصبح داخلياً، فالتوغل الأوربي في مستوياته الثقافية والاقتصادية والسياسية من ناحية، والمسلمون وعلماء الدين الذين يرتابون بمسلك الدولة من الناحية الثانية، فسيبدءون صراعاً لن ينتهي حتى بعد نهاية الدولة العثمانية، بل استمر حتى يومنا هذا. إن من الأهمية بمكان أن نقوم ما حدث ولقد ترك السلطان العثماني عبد الحميد الثاني^(١)، وفي مذكراته شهادة تاريخية، لقد حاول إنقاذ الدولة العثمانية بعد أن دارت عليها الدوائر واحكم عليها الحصار، لقد كان سلطاناً واعياً لحقيقة الدعوات إلى التحديث التي اتخذت لها تسمية (الحركة الإصلاحية) تغطية لنواياها الحقيقية في ربط الدولة العثمانية بالغرب، وعن ذلك فحاربه الدستوريون ويهود الدومة وعزلوه، وفي أواخر عهده كتب وهو سلطان مسلوب الإرادة يكشف حقيقة الإصلاح سيكون سبباً فيقول "التجديد الذي يطالبون به تحت اسم الإصلاح سيكون سبباً في اضمحلالنا . ترى لماذا يوصي أعداؤنا الذين عاهدوا الشيطان بهذه الوصية بالذات. لاشك أنهم يعلمون علم اليقين أن الإصلاح هو الداء وليس الدواء وأنه كليل بالقضاء على هذه الإمبراطورية إذا أردنا أن نتبنى بعض الإصلاحات فعلياً أن نأخذ بالحسبان الظروف السائدة في البلاد. وإلا نقيس الأوضاع على أساس المستوى الفكري لحفنة قليلة من الموظفين، ويجب أن يكون في الحسبان شكوك طبقة العلماء في كل ما هو أوربي، الأوربيين يتوهمون أن السبيل الوحيد للخلاص هو الأخذ بحاضرتهم جملاً وتفصيلاً، لاشك أن طراز التطور عندنا هو غير ما عند الأوربيين وعلينا أن نتطور تحت ظروف طبيعية ومن تلقاء أنفسنا وأن نستفيد من الظروف الخارجية في حالات خاصة ومن الظلم الفادح أن نتهم بمعادة كل شيء يأتي من الغرب."^(٢)

نتائج حرب القرم

تعتبر حرب القرم في نظر بعض المؤرخين نقطة تحول في تاريخ لدولة العثمانية وتاريخ شعوبها، وكذلك تعتبر عاملاً مساعداً في التغيير الاجتماعي والسياسي الكبير الذي حدث في المجتمع العثماني منذ منتصف القرن التاسع عشر .

كان أهم مظهر من مظاهر التغيير الاجتماعي الذي نتج عن حرب القرم كان من نصيب العاصمة اسطنبول فقد فتحت تلك الحرب أبواب اسطنبول إلى الحضارة الأوربية وأخذ العثمانيون ينظرون إلى البريطانيين والفرنسيين نظرتهم إلى حلفاء ينصرونهم ضد عدوتهم التقليدية روسيا، وصار البريطانيين والفرنسيون من جانبهم يغلبون في البلاد العثمانية لإدخال الحضارة فيها من جهة ولجني الأرباح التجربة من جهة أخرى، تقول المؤرخة الألمانية (ولتن)^(٣) "إن الدولة العثمانية برهنت على إنها حاجز ذو قيمة ضد الحظر الروسي فشددت أوربا على ضرورة الإصلاح الداخلي فيها إذ إن كل تقوية إلى جسد الرجل المريض كانت تزيد من قوته على حماية طريق الهند وإغلاق الدردنيل أمام السفن الروسية وقد أخذ البريطانيون والفرنسيون يمدون الدولة العثمانية بالقروض ويرسلون البعثات الاقتصادية^(٤) والعسكرية إلى المقاطعات العثمانية الشاسعة، ويؤسسون المدارس وينشؤون السك الحديدية وخطوط تلغراف، وهم إذ كانوا يفعلون ذلك ولم يكونوا في أمر محاربة روسيا فقط بل كانت لهم مقاصد تجارية أيضاً، وكانت أولى نتائج هذه الخطة تبشر بالنجاح فأصبحت الأنسجة القطنية الانكليزية تغطي أجساد الفلاحين العثمانيين واستخدمت المحارث الانكليزية لشق لأراض الزراعية وصارت سمعة الانكليز من حيث تفوقهم في مجال القوة والذكاء والصناعة شائعاً في كل أطراف الدولة العثمانية، وتضيف المؤرخة (ولتن) إلا إن الأتراك وهم محاربون بالفطرة كانوا يحتقرون الاشتغال بالتجارة والصناعة فسمحوا لتجارهم بأن تقع في أيدي تجار أوربيين ليسوا على كل حال من النوع الممتاز، فقد نزح إلى تركيا مقامرون وأفاقون من كل نوع وأنشئوا هناك مشاريع خيالية لم يكن أحد ليجرؤ على تكذيبها في ذلك العصر المملوء بالغرائب، فأنشئت شركات لشراء أراضي وهمية كي تقام عليها المباني والبنوك ومكاتب التلغراف وخطوط سكك الحديد مشاريع خيالية ولكنها في الظاهر ذات مستقبل مضمون يفوق على كل حال ماضي أصحاب تلك المشاريع، وهاجر إلى تركيا كذلك الكثير من لاجئ البولونيين الذين لم يتيقنوا شيئاً من حياتهم سوى خياطة الثياب وترقيع الأحذية، ولكنهم اقتحموا في تركيا الأوساط الهندسية العالية وادعوا الخبرة في فن المعمار، وكانت تجارة الحصول على الامتيازات اللازمة لكل مشروع جديد في حد ذاتها عملاً مربحاً، ومجرد

(١) في عام ١٨٧٦ وصل السلطان عبد الحميد الثاني سدة الحكم بعد أخيه السلطان مراد، شهدت فترة السلطان عبد الحميد الثاني نشاطاً إصلاحياً ملحوظاً وفي عهده صدر الدستور الثاني عام ١٨٧٦، وأصل مهامه في الدولة العثمانية إلى أن اعفي من قبل جماعة الاتحاد والترقي في عام ١٩٠٨، لمزيد من التفاصيل ينظر، وديع ابو زيدون، تاريخ الإمبراطورية العثمانية من التأسيس إلى السقوط، ط١، عمان، المكتبة الأهلية للنشر والإعلان، ٢٠٠٣.

(٢) محمد مصطفى الهاللي، السلطان عبد الحميد الثاني بين الإنصاف والجود، دمشق، دار الفكر، ٢٠٠٤، ٢١.

(٣) علي الورد، المصدر السابق ، ص ٧٢.

الإشاعة عن معرفة أحد موظفي الباب العالي كافية لإطعام عائلة وأصبحت صحية (أغن نفسك)^(١) شعار الملك لويس فيليب تتجاوب فوق البسفور ولكن على نحو مفرط يتناسب مع طبيعة الشرق وهكذا أخذت تركيا تدفع غالباً ثمن أكاليل الغار الجديد، فكان انتصارها في لواقع انهزاماً أمام حلفائها الغربيين، وكان سير الأمور يوحي بأن أوروبا ستتمكن من شراء تركيا بأسرها، فقد خضعت هذه الدول القديمة المحاربة لا مضي وأدهاها: سلاح الذهب^(٢) .

الخاتمة

نشبت الحرب في شهر تموز من عام ١٨٥٣م، ثم اشتركت فيها بريطانيا وفرنسا في آذار من عام ١٨٥٤م. وكان لها ثلاث جبهات: جبهة الدانوب في الغرب وجبهة قفقاسيا في الشرق، وأما الجبهة الثالثة فكانت في شبه جزيرة القرم. يقول المؤرخ الأمريكي وليم بيل في وصف حرب القرم: أنها كانت من أكثر الحروب التي نشبت بين الدول الأوروبية "غباءً وعدم فائدة" فقد كانت الخسائر في الأرواح والممتلكات هائلة ، وكان أضعف ما جرى فيها حصار قلعة سيباستول وهو الحصار الذي قامت به الجيوش البريطانية والفرنسية ضد الحامية الروسية ودام سنة كاملة ولم يكن الجنود البريطانيون والفرنسيون متعودين على برد روسيا فانتشرت بهم الأمراض والعاهات، وقد انتهت الحرب أخيراً بانتصار الدولة العثمانية وحليفها بريطانيا وفرنسا. أما بالنسبة إلى أهم الاستنتاجات التي توصل إليها الباحث فهي:

- ١- إن الحرب القرم كانت البداية التي انتهت بها أملاك الدولة العثمانية في منطقة شرق أوروبا.
- ٢- بعد أن أظهرت فرنسا وبريطانيا صداقتها وخوفها على مصالح الدولة العثمانية إلا إنها كانت تخطط الأبعد من ذلك إلا وهو فرض سيطرتها على المناطق التي كانت تسيطر عليها الدولة العثمانية.
- ٣- كانت حرب القرم من الأسباب الغير مباشرة لاندلاع لحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤.

قائمة بأسماء المصادر

أولاً - الكتب

- (١) إبراهيم خليل أحمد، تاريخ السيطرة العثمانية على أقطار الوطن العربي، الموصل، مطبعة جامعة الموصل، ١٩٨٢.
- (٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى، مصر والمسألة المصرية، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٥.
- (٣) الياس الأيوبي، محمد علي وسيرته وأعماله وآثاره، مصر، دار الهلال، ١٩٢٣.
- (٤) جاكليين بيرين، اكتشاف جزيرة العرب خمسة قرون من المغامرة والعلم، ترجمة، قدري قلججي، بيروت منشورات الفاخرية ودار الكتاب العربي، د.ت.
- (٥) جاليناس نيكيت، قناة السويس ملكية وطنية للشعب المصري، ترجمة إبراهيم عامر، القاهرة ، الدار المصرية للطباعة، ١٩٧٥.
- (٦) جمال محمود حجر، القوى الكبرى والشرق الأوسط في القرنين التاسع عشر والعشرين، تقديم عمر عبد العزيز عمر، الإسكندرية ، مطبعة دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٩.
- (٧) خلف بن دبلان بن خضر الوديني، الدولة العثمانية والغزو الفكري، ط٢، مكة المكرمة، مطبعة جامعة أم القرى، ١٩٩٧.
- (٨) رجب حراز، الدولة العثمانية وسبه جزيرة العرب ١٨٤٠-١٩٠٩، القاهرة، ١٩٧٠.
- (٩) شوقي عطا الله الجمل وعبد الله عبد الرزاق إبراهيم، تأريخ أوروبا في عصر النهضة إلى الحرب الباردة، القاهرة، مطبعة المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، ٢٠٠٠.
- (١٠) عمر الإسكندري وسليم حسن، تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر، مطبعة المعارف، ١٩١٧ .

(١) محمد مصطفى الهاللي، السلطان عبد الحميد الثاني بين الإنصاف والوجود.

(٢) علي الوردي، المصدر السابق، ص ٧٤.

- (١١) عبد الرحمن زكي، التاريخ الحربي العصر محمد علي الكبير، دار المعارف، مصر ، ١٩٥٠.
- (١٢) عمر طومسون، الجيش المصري في الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم ١٨٥٣-١٨٥٥، ط١، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٩٣.
- (١٣) عمر عبد العزيز عمر، دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، بيروت، ١٩٧٥.
- (١٤) علي سلطان، تاريخ الدولة العثمانية، طرابلس، منشورات مكتبة طرابلس، د.ت.
- (١٥) علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج٢، ط٢، بيروت، مطبعة دار الراشد، ٢٠٠٥، ص٦٦-٦٧.
- (١٦) عبد الرحمن الرافعي، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، ج٢، ط٣، مكتبة النهضة، ١٩٥٨.
- (١٧) عمر عبد العزيز عمر، تأريخ المشرق العربي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٤.
- (١٨) عمر عبد العزيز عمر، تأريخ أوروبا الحديث والمعاصر ١٨١٥-١٩١٩، الإسكندرية مطبعة دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٠.
- (١٩) فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، دراسة تاريخية في الأوضاع الإدارية في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية مطلع العهد العثماني أواسط القرن التاسع عشر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ٢٠٠٧.
- (٢٠) قيس جواد العزاوي، الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، بيروت، مطبعة المتوسط، ٢٠٠٣.
- (٢١) كريم ثابت، محمد علي، ط٢، مطبعة المعارف، ١٩٤٣.
- (٢٢) كمال مظهر أحمد، دراسات في تاريخ إيران الحديث والمعاصر، بغداد، مطبعة أركان، ١٩٨٥.
- (٢٣) لويس عوض، الثورة الفرنسية، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب العامة، ١٩٩٢.
- (٢٤) محمد مظفر الأدهمي، تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر، بغداد مطبعة جامعة بغداد، ١٩٨٦.
- (٢٥) محمد كمال دسوقي، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٦.
- (٢٦) محمد جميل بيهم، الحلقة المفقودة في تاريخ العرب، ط١، القاهرة، ١٩٥٠.
- (٢٧) محمد حسن العبدروس، تاريخ العرب الحديث، دبي الكتاب الحديث، ٢٠٠٠.
- (٢٨) محمد أنيس، الدولة العثمانية والشرق العربي ١٥١٤-١٩١٤، القاهرة دار الجيل للطباعة، د.ت.
- (٢٩) حمد فؤاد شكري، مصر والسودان تاريخ وحدة وادي النيل السياسية في القرن التاسع عشر، ط٣، مصر، دار المعارف، ١٩٦٣.
- (٣٠) محمد مصطفى الهاللي، السلطان عبد الحميد الثاني بين الإنصاف والجود، دمشق، دار الفكر، ٢٠٠٤.
- (٣١) محمود صالحي منسى، مشروع قناة السويس بين أتباع سان سيمون وفردنان دي ليسبس دراسة وثائقية للجهود الفنية والدبلوماسية من اجل شق طريق مائي في برزخ السويس حتى عام ١٨٦٥، القاهرة دار الاتحاد العربي للطباعة، ١٩٧١.
- (٣٢) مكي جميل، تاريخ المسألة الشرقية، المكتبة العصرية، بغداد، ١٩٢٦.
- (٣٣) نور الدين حاطوم، تاريخ الحركات القومية، دمشق، ١٩٦٧.
- (٣٤) هاشم صالح التكريتي، المسألة الشرقية المرحلة الأولى ١٧٧٤-١٨٥٦ بغداد، بيت الحكمة، ١٩٩٠.
- (٣٥) ه.أ.ل. فشر، تاريخ أوروبا في العصر الحديث (١٧٨٩-١٩٥٠) ترجمة أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع، ط٩، القاهرة، مطبعة دار المعارف، ١٩٩٣.
- (٣٦) وديع أبو زيدون، تاريخ الإمبراطورية العثمانية من التأسيس إلى السقوط، ط١، عمان، المكتبة الأهلية للنشر والإعلان، ٢٠٠٣.

الدوريات

- (١) أمة الملك إسماعيل قاسم الولادة العثمانية وأبرز أعمالهم الإنشائية في فترتي الحكم العثماني الأول والثاني لليمن، مجلة الملك سعود، مجلد ٢٢، ١٤٣١هـ.
- (٢) علي يوسف البلخي، "الموقف الدولي من احتلال محمد علي لبلاد الشام ١٨٣٩، ١٨٤٠ من خلال الوثائق العثمانية"، مجلة دراسات تاريخية، العددان (١٩-٢٠) نيسان/تموز ١٩٨٥.
- (٣) محمد حبيب صالح، "الدبلوماسية الروسية في مصر وبلاد الشام خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر" مجلة دراسات تاريخية، العددان (٦٨، ٦٧) كانون الثاني وحزيران، ١٩٩٩.

الرسائل والأطاريح

- (١) زيدان حسان الحاوي، مؤتمر فينا ١٨١٤-١٨١٥، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية جامعة بغداد، ٢٠٠٤.
 - (٢) سامي صالح محمد، الصراع البريطاني الفرنسي على مشروع قناة السويس ١٨٥٤-١٨٦٩، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة بغداد، كلية الآداب، ٢٠٠٦.
 - (٣) عدنان حسين الشخيلي، الفكر القومي العربي في مصر ١٨٨٢-١٩٢٢، رسالة ماجستير، المعهد العالي للدراسات والاشتراكية، الجامعة المستنصرية، ١٩٨٠.
- المنتدى، شبكة المعلومات الدولية (الانترنت).

١-WWW.FNRTOP.COM\VB\ SHOWTHREAD. PHP

AR.WIKIPEDIA. ORG\WIK.

٣-HTT SHATHARAT COM